دمشق الشام

اخوي

غب الخ ... ان مَنْ يزور دمشق يبتهج بجودة موقعها الطبيعي وجمال ما حولها فهي في ذلك كما وصفها جناب الدكتور بشارة زلزل وجه ٣٤٣ من السنة الرابعة واهلها على غاية اللطف والرقة ولا يزالون على ما اشتهر به العرب من مؤانسة الزائر وحب الغريب واكرام الضيف ونحو ذلك من المزايا الحميدة . وممّا سرّني فيها من الجديد انتظام مدارسها وترتّب دروسها واجتهاد تلامذتها سواء كان في مدارس المسلمين او المسيحيين فان مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية جارية احسن مجرى من النجاح بهمة عمدتها الذين منهم الاديب النبيه رفعتلو اديب افندي نظمي وكيل المقتطف بدمشق وكذلك مدارس المسيحيين ولا سيما مدارس الروم الارثودكس بهمة رئيسها الفاضل الياس بك القدسي نجل سعادة عبده بك القدسي

وقد استقصيتُ اخبار جمعياتها فقيل لي ان الجمعية الفرامسونية اعظمها نجاحًا واوفرها اعضاء واكثرها اجتماعًا وان اعضاءها موصوفون بالحب الوطني والتوادّ والاحسان ونبذ التعصّب وان جماعةً من اوجه اهل دمشق واكابر قومها منتظمون فيها وذلك اعدّ من الغرائب ولكن الايام لا تبقي جديدًا غريبًا تحت الشمس . الّا ان المطابع في دمشق لا تذكر واحسن ما فيها من ذلك مطبعة الحجر يديرها الاديب رفعتلو مصطفى افندي واصف بتمام الضبط فتخرج مطبوعاتها على غاية الاتقان وهانذا ابسط لديكم كتابًا من طبعها اسمهُ "بديع التخليص وتلخيص البديع" اهدانا اياهُ مؤلفهُ الفاضل حضرة الشيخ طاهر افندي منشئ المكاتب بدمشق فترون ما في طبعهِ من النظافة والإتقان

واما مكاتب دمشق فمنها مكتبة الملك الظاهر الشهيرة ومكتبة صاحب الفضيلة اسعد افندي حمزة حيث عثرتُ على كتبٍ عزيزة اهدانا منها كتابًا اسمهُ "عنوان الشرف" في كل وجهٍ منهُ اربعة حقول فاذا قرأتها طردًا كلها معًا ادركت منها معاني مخصوصة واذا قرأت كل حقلٍ على حدتهِ ادركت منهُ معاني اخرى . ومكتبة العلّامة الدكتور ميخائيل مشاقة حيث اراني صاحبها الشهير بعض مؤلفاتهِ النفيسة في العلم منها مؤلّف في علم الهيئة يتضمن بين ما يتضمنهُ جداول عديدة منها جدول لمعرفة اوقات الخسوف والكسوف الى مئة سنة وآخر لمعرفة اليوم والشهر والسنة في الحساب الغربي والشرقي والهجري والقبطي وغير ذلك

اما مصنوعات دمشق فاشهرها الالاجة ولكن سوقها كاسدة . ولبعض افراد دمشق براعة كلية في الصناعة فقد رأيت لصاحب العزّة مصطفى افندي سباعي مصنوعات عديدة منها طلبة من اختراعهِ

لصحب البارود من البندقية وتفريغهِ في غاية ما يكون من الدقة وازرار متقنة من الكهرباء وسكاكين مجوهرة يبرى بها القلم وتبقى بعد ذلك صالحة للحلاقة ولا تعرف الصدأ . ومآبر ولوالب من الخشب للعطر ومساويك وبرشّات الى غير ذلك ممّا يشهد ببراعة عزتو كما يشهد كرمهُ وعزّة نفسهِ وحبهُ لتنشيط العلم والأدب انهُ من اركان الفضل الذين تفتخر بهم دمشق . وقد تكرّم على المقتطف بكتاب في عمل الاحبار ونبذ اخرى صناعية . فنثني عليهِ اطيب الثناء كما نثني على مَنْ بقي ممّن تكرّم باهداء المقتطف

هذا وممّا يجب عليّ ذكرهُ اني تشرفت بمقابلة صاحب السيادة والفضل الامير عبد القادر الحسني الجزائري فاذهلني ما لقيتهُ في منزلهِ العامر من الوقار وما وجدتُ في سيادتهِ من اللطف والانضاع وما توسمتهُ فيهِ من سيماء العلم والصلاح ممّا هيّج لهُ في نفسي اعمق حاسّات الاحترام والاعتبار . وقد تكرّم علينا نجلهُ صاحب السعادة والقاب الشرف الامير محمد باشا بكتابهِ النفيس الجديد عقد الاجياد في الصافنات الجياد ولسعادتهِ منزلة رفيعة عند اهل العلم والأدب كما يشهد بذلك كتابهُ المذكور ويسرّني ان اذكر لكم ما سمعتهُ من حضراتهم جميعاً مدحاً في المقتطف وثناء عليكم على ما تفيدون بهِ

وممّا احبُّ ذكرهُ هنا اني شاهدت خروج الحج من دمشق ورجال الحكومة يتقدمون المحمل الشريف بالملابس الرسمية والموسيقى الشاهانية وتبعهُ جمهور يتيف على مئتي الف نسمة والبدو على متون الخيل والجمال يتناشدون الاشعار العربية ويضربون بالدفوف ويلعبون بالرماح ويتبارزون على ظهور الجياد فحلتني واقفاً في بلاد العرب أرى ما كنت اقرأهُ واسمع ما كنت احلهُ وقد ساعدني الحظ برفقة الاديبين يحيى بك اغربيوس ومحمد امين افندي الاسطواني فأراياني اموراً كثيرة كان يفوتني نظرها لولاها واخبراني ان زنة المحمل نحو ٦٠٠ اقة يحملهُ جمل واحد مسافة ساعة من المدينة

وصعدت مرةً الى ماذنة سيدنا عيسى بمعية بعض العلماء الافاضل فشاهدت دمشق وما حولها من القرى الى بعدٍ شاسع ولا اظن انهُ يوجد ماذنة اعلى منها في سورية وعند نزولنا منها عددت درجها فبلغت مئة وخمسين درجة ثم قست طول الجامع الاموي فكان نحو مئتي خطوة وعرضهُ نحو مئة وخمسين من الشمال الى الجنوب وهو من المعابد الواسعة الشهيرة

والخلاصة اني رأيت من لطف الدمشقيين وانسهم ما جعلني اردّد قول الشيخ عبد الغني النابلسي فيهم

خيرُ الاناس اناسها يرعون انـــواع الوداد ويحفظون الموثقا

دمشق ١٤ ايلول ١٨٨١ شاهين مكاريوس